الأحد,حزيران 29, 2008

طالبان الأفغانية (1)

ملامح تمركز جديد للمشروع الجهادي العالمي

طالبان الأفغانية (1)

د. أكرم حجازي

صحف – 29/6/2008

بدون أدنى ذرة من الشك فقد لاحظ المراقبون تطورات مذهلة طرأت على الساحتين الأفغانية والباكستانية خلال الشهور القليلة الماضية. وبدون أدنى شك فإن الصراخ الأمريكي والبريطاني في أفغانستان بات دويه يغطي على مثيله في العراق حيث يشعر الجنرال ديفيد بتريوس قائد القوات الأمريكية ببعض الأمن الذي توفره له الصحوات وبعض الأصدقاء الجدد وخاصة أولئك الذين يغمزون من قناة الحل التوافقي الوطني. لكن قدر الأمريكيين وحلفائهم أن يتجرعوا السم والعسل من كأس واحدة كلما حاولوا التظاهر

أنهم في الطريق إلى تحقيق النصر، فإذا كانوا قد نجحوا في اختراق الساحة العراقية الممزقة أصلا وإضعاف المشروع الجهادي، إلى حين، ولأكثر من سبب إلا أنهم ظهروا عاجزين في بلاد الأفغان التي باتت بجدارة مركز المشروع الجهادي العالمي. فما هي ملامح هذا التمركز الجديد؟ وما هي عناصر قوته في ضوء صعود نجم طالبان باكستان؟

يبدو أن الربيع الساخن الذي هددت به طالبان قوات الإيساف في أفغانستان أوائل العام الماضي تأخر عاما كاملا لنشاهد أسخن وقائعه تتوالى منذ ربيع العام الجاري على الأقل. ولعل الأمريكيين اطمأنوا إلى تهديدات بدت لهم أقل مما توقعوا كلما مرت فصول العام الماضي دون أن تثبت الفعاليات المسلحة لطالبان صدق تهديداتها رغم أن مواجهات العام 2007 خلفت أكبر حصيلة من القتلى في صفوف قوات التحالف (232 قتيل) لدرجة اعتباره العام الأكثر دموية منذ عام 2001، لكن ربيع العام الجاري أثبت بما لا يدع مجالا للشك أن القوات الأمريكية ربما تكون قد تعرضت لما يشبه الخديعة العسكرية المؤلمة وهي تستفيق على سلسلة نوعية من الضربات لم تعهدها قبلهم سوى القوات السوفياتية في مرحلة الجهاد الأفغاني الأول، بل أن مدير هيئة الاستخبارات العسكرية، **مايكل ماكونيل** أكد، في جلسة استماع أمام مجلس الشيوخ، بعد ست سنوات على الاحتلال، أن حركة طالبان وشيوخ القبائل الأفغانية يسيطرون على **70 %** من أراضي أفغانستان بشكل فعلي، في حين تسيطر حكومة حامد كرزاي بمساعدة القوات الأجنبية على **30%** فقط.

والثابت أن صياح الأمريكيين والبريطانيين صمّ الآذان عن هزيمة جيوشهم في بلاد الأفغان، وشهدت وسائل إعلام البلدين زحمة مقالات وتحليلات وتصريحات للعسكريين والاستراتيجيين تطالب بضرورة الخروج من أفغانستان. فمن

جهته اعترف الحلف الأطلسي بلا مواربة أن طالبان تحقق نصرا تكتيكيا، لكن الضباط وقادة الميدان كانوا أكثر صراحة في تقييم الوضع الميداني، ففي حوار مع صحيفة الواشنطن بوست الأمريكية اعترف **الجنرال دان ماكنيل** قائد قوات الناتو السابق في أفغانستان أن التصدي لهجمات حركة طالبان الأفغانية بات: **أمرًا عسيرًا،** وبالمقارنة مع الحرب في العراق قال **المقدم جون ناجل،** المسؤول والخبير العسكري الأمريكي أن: **الحرب في أفغانستان هي حرب تستحق أن نقلق كل القلق بشأنها، وهي الحرب التي تحتاج الولايات المتحدة فيها كل مساعدة ممكنة من أصدقائها.** وحتى وزير الدفاع الأسبق دونالد رامسفيلد الذي أنكر وجود طالبان على الأرض الأفغانية بعد احتلال البلاد عاد وكتب مقالة في الواشنطن بوست (8/10/2006) قال فيها: **إن كل الأخبار عن أفغانستان غير مشجعة وخاصة في جنوبها،** ومؤخرا اعترف ضابط أمريكي رفيع بأن: **هجمات طالبان زادت بمعدل 40% عن ذي قبل** وسط حصيلة من القتلى خلال الشهر الجاري هي الأعلى (39 قتيلا بينهم 19 أمريكيا وأحد عشر بريطانيا) منذ احتلال البلاد.

والحقيقة أن متابعة الشأن الأفغاني لم يعد سهلا أمام تدفق البيانات العسكرية لطالبان بشكل يبعث على الدهشة خاصة وأنها تفرض نفسها على كافة وسائل الإعلام العالمية بما يكفي لدق ناقوس الخطر إزاء ما تحققه طالبان من تقدم ميداني مذهل، هذا في وقت تبدو فيه وسائل الإعلام العربية أتعس من أن تتابع، بحيادية، حتى بيانات القوات الأمريكية ناهيك عن إغفال بيانات طالبان. إذ أن استقراء المضمون العسكري للبيانات تشير إلى استهداف شامل لم تستثن منه قوة معادية ابتداء بقوات الإيساف الأطلسية ومرورا بالقوات

الأفغانية الهزيلة وانتهاء بالصحوات المحلية. والأطرف في الهجمات أنها على ذات الوزن من الشدة والقوة فضلا عن اتسامها بـ: **تعقيدات متشعبة** محسوبة استراتيجيا بدقة بالغة لدرجة أن التصريحات العسكرية على أعلى المستويات تعترف بأن خطط طالبان العسكرية تفوقت على مثيلتها الأطلسية، بل أن الأطلسي اعترف بـ **إعجاب** أن عملية سجن قندهار كانت ناجحة بكل المقاييس.

فقد تعرض الحلفاء لهجمات بالغة الشراسة في الجنوب الشرقي لأفغانستان أسفرت عن مقتل عشرات الجنود وتحولت آلياته إلى فرائس سهلة للعبوات النافسة فضلا عن الهجمات المباشرة على القواعد والثكنات وخطوط الإمداد والدعم فضلا عن إسقاط العديد من الطائرات العمودية والاستيلاء على ثلاث منها، وكلها أحداث فيها ما يكفي لإرهاق أية قوة احتلال ودفعها إلى الصراخ والعويل رغم أنفها حتى لو تجاهلت وسائل الإعلام ما يجري في ساحات القتال. ولا مفر من الاعتراف بأن أقوى الضربات وأشدها في ساحات الجهاد العالمي تقع اليوم في أفغانستان، بل وصل الأمر في طالبان إلى الإعلان جهارا، وبنوع من التحدي، عن إرسال فريق استشهادي إلى قلب قندهار لتنفيذ مهمات خاصة، وفريق مقاتل آخر قوامه 350 مقاتل متواجد في وسط العاصمة كابول، وعليه فلم يعد يفيد الأميركيين ولا غيرهم التكتم على ما يجري خاصة وأن ساحات المواجهة سجلت في أكثر من مناسبة فضائح مدوية وإهانات بالغة في نوعية العمليات التي تستهدف القوى المعادية لطالبان.

وعلى الطرف المحلي فلم يكن استهداف الحفل الرئاسي بحضور الرئيس الأفغاني حامد كرزاي، فيما اشتهر بعملية المنصة قرب القصر الرئاسي في كابول في شهر أبريل الماضي، مجرد ضربة تراكمية في سجل الجهاد والمجاهدين

بقدر ما كان أبلغ إهانة تتلقاها القوات الأمريكية وليس الرئيس كرزاي الذي فرّ من البلاد على عجل تاركا قواته تتخبط بفوضى عارمة نجح في إحداثها بضعة مجموعات من مقاتلي طالبان، هكذا بدا مشهد ضباط الحرس الرئاسي بنياشينهم وبذلاتهم الأنيقة وكبريائهم وهم يتراكضون في كل اتجاه وتدوس بعضهم القادم هربا من الهجوم.

أما عملية سجن قندهار فكانت صفعة مدوية يحق لها أن تنسخ ما سبقها من صفعات قاعدة باغرام وسجنها مما لم تعد تحتمله لا القوات الأمريكية ولا الأفغانية، إذ نجحت طالبان في تحرير مئات السجناء في منطقة شديدة التحصين مخلفة تصريحا أغبرا لوالي قندهار قال فيه: **لم يعد في السجن أحد!**؟ فهل من فضيحة بعد هذه الفضيحة؟ والعجيب هو ما كشف عنه موقع الأمة الباكستاني عن هروب رئيس استخبارات طالبان الذي وقع كرزاي بحقه حكم الإعدام، والأعجب أن أحدا لم يتنبه لهروبه طيلة تسعة أيام! وإن صحت الحادثة فهي أشد أثرا من عملية السجن ذاته. فأية قوى جبارة هذه التي لا تستطيع الاحتفاظ بسجينها؟

ترى، هل ثمة قوى خارجية تساعد طالبان! نطرح السؤال لأن سبع سنوات من الاحتلال الأمريكي لم نشهد فيها أي عمليات لطالبان بهذه الشدة والدهاء في التخطيط والتنفيذ. والطريف أن البيانات التي تصدرها طالبان تغلب عليها الصفة الأمنية بحيث يصعب اعتبارها مادة كافية للتحليل أو للاطلاع على حقيقة الوضع في أفغانستان، ويكفي أن قراءة بعض العمليات بلغة أمنية ستخلف مائة سؤال وسؤال دون إجابة، ولولا بعض التصريحات الغربية والبيانات العسكرية لقوات إيساف لكان الوضع عصيا على الفهم إذا ما اقتصرنا على بيانات طالبان. لكن على الأقل سنلاحظ، بحسب ما يتوفر من معطيات أن:

· طالبان حققت اختراقات أمنية واسعة النطاق داخل الجيش والشرطة وفي قلب السجون وحتى داخل مؤسسة الرئاسة وإلا ما كان لها أن تصل إليها وهي تزهو في عرينها. وهو اختراق جاهرت طالبان نفسها بتحقيقه عبر تصريحات نقلتها شبكة **سكاي نيوز الأمريكية** عن **هزار غل** القائد الميداني لطالبان في منطقة كابول، وأكدها ضابط بريطاني برتبة مقدم مشيرا بأن: **الأفغان يعلمون بقضية الاختراق، ويبذلون قصارى جهدهم للتعرف إلى الذين انخرطوا في صفوف الجيش**.

· كما أنها حققت تفاهمات اجتماعية أوسع نطاقا مع القبائل والقوى الاجتماعية الحاضنة لها وإلا ما كانت لتحقق كل هذه النجاحات بسرعات قياسية. والأهم في عملية سجن قندهار أنها تمت بالتنسيق مع القبائل وبتواطؤ من القرى المحيطة وسيطرة تامة على الطرقات ووسائل المواصلات، فضلا عن معرفة السجناء بالعملية قبل حدوثها.

· أن طالبان بدأت تنتقل من الهجمات الخاطفة إلى السيطرة على المناطق وتطهيرها وطرد القوى المعادية منها. وبحسب توصيات مركز الأبحاث الدولي (**SENLIS**) يبدو بأن طالبان عازمة على السيطرة فعليا على كابول خلال العام الجاري ما لم يجرِ تدارك الأمر قبل فوات الأوان.

إلى هنا سيكون من حق ضباط آخرين أن يزعموا بأن الحرب في أفغانستان قد تطول إلى أمد غير محدود بشرط أن تتحمل القوات الأطلسية ضراوتها. لكن من المؤكد أن طالبان ليست وحدها، وأن للقاعدة يد طويلة في عملياتها النوعية وخاصة في استراتيجياتها القتالية الجديدة غير المألوفة سابقا، وحتى في انتقاء الأهداف. ولا شك أن من تابع

وقائع الهروب الكبير من سجن قندهار قد توقف طويلا عند شبح عمليات القاعدة في العراق من سجن أبي غريب إلى سجن بادوش ومستشفى الموصل وغيرهما وهو يلاحق القوات الأمريكية والأفغانية، بل أن أحدا لم يعد يشكك في التقارير والتصريحات والتحقيقات التي تتحدث عن أن بعض قادة طالبان زاروا العراق وأقاموا معسكرات وتدربوا على العمليات القتالية الدائرة فيه، وخبروا أحدث وأرقى الأساليب القتالية المتطورة، وتعلموا صناعة العبوات الناسفة وتطوير الأسلحة ووسائل إسقاط الطائرات، وأدخلوا إلى استراتيجياتهم أسلوب العمليات الاستشهادية غير المألوف لدى الطالبان سابقا لينفذوا قرابة 130 هجوما سنة 2006 وحده.

وفي السياق من الملفت للانتباه الإشارة إلى تصريحات **الجنرال ماكنيل** للواشنطن بوست وهو يتحدث عما يسميه بـ: **التواطؤ بين المسلحين المحليين والمقاتلين العرب، الذين يتخذون من إقليم شمال شرق باكستان ملاذًا لهم، مما يجعل التصدي لهم أكثر صعوبة.**

الجمعة,تموز 04, 2008

طالبان الباكستانية (2)

ملامح تمركز جديد للمشروع الجهادي العالمي

طالبان الباكستانية (2)

د. أكرم حجازي

صحف - 5/7/2008

بالتأكيد فإن ما يجري على الساحة الأفغانية لا يصح قراءته بمعزل عما يجري على الجانب الباكستاني خاصة في المناطق الحدودية المشتركة أو ما يعرف في الحزام البشتوني عموما ومنطقة وزيرستان على وجه الخصوص وفي قسمها الجنوبي بالذات حيث موطن قبيلة محسود التي تشكل نسبة **60%** من سكان المنطقة البالغ مجموعهم **700 ألف** نسمة، وإليها ينتمي بيعة الله محسود زعيم طالبان الباكستانية التي تضم أكثر من عشرة آلاف مقاتل. لكن ما الذي يجعل الحزام البشتوني ملاذا آمنا إلى حد بعيد للمجاهدين؟ وما هي خلفية التحالفات بين القوى الجهادية في

الحزام؟ وما هي مبررا الحكومة الباكستانية في المصالحة مع طالبان ومقاتلي القبائل؟

بيعة الله محسود

لا تحتوي شخصية الزعيم الطالباني بيعة الله محسود على أية عناصر جذابة في التحالف معها أو التعويل عليها أو فهم ما يجري في الحزام البشتوني، حتى حلفاءه يقولون أنه لم يتعلم لا في المدارس الدينية ولا الحديثة منها، لكنه مع ذلك **سياسي بالفطرة**. ومثل هذه الصفات أبعد ما تكون عن اهتمام القاعدة التي تبحث عن شخصيات دينية أو قادة إسلاميون تمرسوا بالمعارك كي تتحالف معهم. ومع ذلك فالأخلاق الرفيعة التي يتحلى بها الرجل و **أعماله الطيبة** وصرامته كانت بمثابة جواز مرور لتلقي دعم قبيلته والتفاف القبائل حوله.

فالحقيقة الساطعة أن الزعيم الباكستاني لا يرغب في الظهور الإعلامي، بل أنه يبدو شديد الحذر على المستوى الأمني، ويتمتع بصلابة فيما يتعلق بالمسائل الشرعية حتى أكثرها حساسية رغم أنه ليس رجل دين ولا شيخا ولا طالبا، والأهم أنه ما من كاتب استطاع أن يثلبه في شخصيته أو خلقه أو كرمه أو لطفه ودماثة أخلاقه، وهي من الصفات العزيزة على قادة كثيرون في هذا الزمن. لكن هل هذا يكفي ليتربع محسود على قيادة حركة باتت تثير الرعب للحكومة وللقوات الأمريكية وتهدد في نفس الوقت بتعميم النموذج الأفغاني ي باكستان؟

من المهم ملاحظة أن شق الحزام البشتوني الباكستاني، كنظيره الأفغني، ظل فقيرا منذ تأسيس باكستان، وظل محافظا يروم حكما ذاتيا في ظلال تطبيق الشريعة منذ ذلك الحين، وتبعا لذلك فقد ظل مهشما ومتوترا حتى أيامنا هذه،

لذا يعتقد الأمريكيون أن برنامج إنمائي في المنطقة يمكن أن يحل المشكلة على امتداد خمس سنوات قادمة. لكن هذا المسعى، لو كان جادا، كان من الممكن أن ينجح لو فعلها الأمريكيون قبل الاحتلال السوفياتي، أما وقد تمرس سكان الحزام بالقتال وترعرعوا في المدارس الدينية وخبروا الوحشية الأمريكية والسوفياتية على مدار ثلاثة عقود وهي تخلف وراءها عشرات آلاف القتلى والمعوقين والدمار الشامل للمنطقة وثارات لا تندمل فلا نحسب أن مهمة المشروع الأمريكي أو الباكستاني ستكون سهلة.

من المهم أيضا ملاحظة أن طالبان الباكستانية هي تَجَمُّع لعدد من الجماعات الإسلامية العريقة المتحالفة مع شيوخ القبائل والتي لم يكن لها من مطلب سوى تطبيق الشريعة حتى قبل الحرب الأفغانية ،ومن الصعب الزعم بأن مثل هذه المطالب تموت بتقادم الزمن أو بفعل برامج تنموية أثبتت أنها مخادعة أكثر منها حقيقة فضلا عن أنها أقرب إلى الرشوات السياسية المهينة. هذه الجماعات والقوى هي التي اختارت محسود ليكون زعيما لها، وبالتالي فالرجل لم يسقط بالباراشوت أو يأتي على ظهر دبابة بل جِيئ به ليكون أمينا على رأس برنامج يجري العمل على تنفيذه في المناطق الواقعة تحت سيطرته.

تضخم طالبان الباكستانية

يبدو أن الطبيعة الجغرافية للمنطقة وشُحِّ مواردها الاقتصادية وفقر السكان ساهمت بظهور فئات اجتماعية منحرفة اتخذت من الجريمة بشتى أنواعها أبوابا للارتزاق، وهو ذات الوضع الذي واجهته طالبان الأفغانية في قندهار وتسبب بالتفاف الناس حولها بعد أن لجأت إلى أخذ القانون بيدها وطهرت المنطقة من شرور هؤلاء. فلم يكن لطالبان

الأفغانية حتى ذلك الحين تطلعات سياسية اللهم إلا تلقي العلم الشرعي بعيدا عن الخوض في الحرب كقوة سياسية، لكن سوء الوضع الاجتماعي هو الذي دفع بطالبان، وبتشجيع باكستاني، إلى المقدمة لتولي الوضع والتقدم حتى كابول لحسم الصراعات الدموية التي اندلعت بين الفرقاء على كراسي الحكم بعد انتهاء الحرب.

والآن نكاد نلحظ ذات التجربة تتكرر في بشتون باكستان ولنفس الأسباب مع الإقرار باختلاف الظروف والدوافع والأهداف. فقد نقلت مصادر صحفية عن أحد المقربين منه بأن بيعة الله محسود: **استعاد القانون والنظام في المنطقة**، مشيرا إلى أن اللصوص وقطاع الطرق كانوا يثيرون الرعب في كثير من المناطق قبل أن يسيطر عليها محسود. ويضيف مراسل **إسلام أن لاين** عن ذات المصدر قوله: **إنه بلا شك الشخص الأكثر نفوذا في منطقتي جنوب وشمال وزيرستان، حيث تمتد دولته من شمال وزيرستان إلى كورام (مساحة تقدر بحوالي 2700كم مربع)**. وقد بات: **قائدا لكل القبائل التي تكن تعاطفا لحركة طالبان، وكل رجال القبائل من جنوب وزيرستان إلى باجور يعملون تحت رايته، ما جعله الرجل الأقوى والأكثر نفوذا في منطقة القبائل**.

لا شك أن هذا الجانب من الصورة ليس هو كل الصورة التي ما زالت تتشكل بفعل عوامل أخرى أكثر أهمية. فالحركة انتقلت في وقت قصير جدا من: **(1)** تأمين المنطقة وحماية السكان إلى **(2)** التحالف معهم ثم إلى (3) تشكيل قوة سياسية وعسكرية. وعلى شاكلة ما يجري في أفغانستان من إعلان لبعض مشايخ القبائل عن انضمامهم إلى طالبان في

مقاتلة الحكومة المحلية والقوات الأجنبية ها هو **زلمان شاه** شيخ عشيرة كبرى في منطقة **اوركزاي** القبلية، ومن أشد مناوئي طالبان سابقا، يعلن تأييده للحركة: **بعد أن طهرت طالبان المناطق التي تسيطر عليها من اللصوص وقطاع الطرق وقضت على الجريمة والرشوة**. والأهم في الإعلان أن صاحبه يقود عشرة آلاف مقاتل، وأنه تعهد: **بالوقوف إلى جانب طالبان في حال شن الجيش أو أي جهة هجومًا عليها**. ولا شك أن مثل هذه التحالفات الاجتماعية والمسلحة من شأنها أن تضع حكومة باكستان فضلا عن حكومة الإقليم في مأزق، خاصة وأنها مرشحة للتمدد في مناطق أخرى.

الثابت أن أحدا لم ينسَ ماساة المسجد الأحمر ومئات الطلبة الذين قتلوا فيه جراء التدخل الدموي لحكومة الرئيس الباكستاني برويز مشرف. والأكيد أن المنطقة في غليان مخيف منذ ذلك الحين. وإن استطاعت الحكومة السيطرة على الأحداث فهي لم تستطع منع اغتيال بناظير بوتو، والمثير أن الباكستانيين باتوا يدركون أن طالبان خرجت من الإقليم البشتوني باتجاه عمق البلاد، وفي تقرير مقتضب لها قالت وكالة رويترز للأنباء (27/6/2008) أن: **أفراد طالبان لم يعودوا يقفون على أبواب بيشاور، إنما باتوا داخلها حيث يمارسون سلطتهم في أكبر مدن شمال غرب البلاد**، وعلقت الوكالة على ما تراه حدثا بأن: **تواجدهم الظاهر يشير إلى الفشل السياسي والعسكري في مقاومة موجة تشدد إسلامي قادمة من حزام البشتون القبلي على الحدود مع أفغانستان** مذكّرة بتصريحات للرئيس الباكستاني حذر فيها من أن: **تبني نهج**

حركة طالبان الأفغانية يمثل أكبر تهديد تواجهه باكستان. فهل اكتملت الصورة إلى هذا الحد؟

طالبان والقاعدة

بالتأكيد لا. وبالتأكيد أيضا فالبرامج التنموية لن تفيد الأمريكيين كثيرا في محاصرة موجة تشدد خرجت من إطارها لتصيب مدينة مثل بيشاور (أكثر من مليوني نسمة) كانت في يوم ما معقل الجهاد العالمي ضد الاتحاد السوفياتي، فما الذي يمنع أن تكون كذلك مجددا ضد الأمريكيين؟ فالأهداف المعلنة منذ ظهور طالبان على مسرح الأحداث قبل سنتين على الأكثر في جوهرها دينية تتعلق بتطبيق الشريعة ومقاتلة ما تعتبرهم طالبان كفارا. وإلا فلماذا تتمدد باتجاه المدن؟ ولماذا تتحالف مع القاعدة؟ ولماذا تصر على عبور الحدود مع أفغانستان لمقاتلة الأمريكيين؟

يعود الفضل للعلاقة القوية بين طالبان والقاعدة إلى الشيخ أبي الليث الليبي أحد أبرز قادة القاعدة في أفغانستان والذي قتل مطلع السنة الجارية على الحدود مع باكستان حيث كان في طريقه للقاء بيعة الله محسود والتفاوض معه على الانتقال إلى أفغانستان لقتال القوات الأميركية. ويبدو أن جهوده أثمرت في بناء علاقات وطيدة مع طالبان باكستان خاصة وأن وفدا رفيعا من طالبان الأفغانية توجه، بعد اغتيال الليبي على عجل، إلى منطقة وزيرستان الباكستانية لإكمال مهمة رجل القاعدة ولقاء محسود بهدف تنسيق وتكثيف العمليات العسكرية في أفغانستان، خاصة في الجنوب. وفي حينه ذكرت مصادر أن: **مجموعة أنصار السنة**، و**حركة الجهاد الإسلامية**، و**أنصار المسلمين**، رفعوا حالة التأهب بين قواتهم لشن حملات عسكرية جديدة على القوات الدولية في أفغانستان.

لو استندنا إلى المصادر الأمريكية ذاتها لأصابنا العجب من نشاط القاعدة والمقاتلين الوافدين حتى في مدينة بيشاور التي كانت مرتعا خصبا لنشاط حثيث كان يقوم به أبا الليث منذ العام 2006 حتى قبل أن تعلن طائفة من الجماعة الليبية انضمامها إلى القاعدة. بل أن بعض التقارير تفيد بأنه ما بين 2500 – 3000 مقاتل أغلبهم من دول آسيا الوسطى يعملون الآن تحت قيادة طالبان الباكستانية، وبالتأكيد لم يلتحق هؤلاء بطالبان كي يتمتعوا ببرامج التنمية الأمريكية.

وفي كل الأحوال فإن تدخلات القاعدة في الباكستان لم تتوقف عند حد الدعوة إلى إسقاط برويز مشرف، ولا شك أن تفجير السفارة الدنماركية في إسلام أباد (2/6/2008) كان عملا أمنيا بارعا شاركت فيه قوى محلية تمكنت من اختراق الشريط الأمني للسفارة المحاطة بعدد من الشركات الدولية والسكن الدبلوماسي وإلا ما كان من السهل أن تصل السيارة المفخخة إلى المرآب المخصص للسفارة دون أن تثير الانتباه. والأهم في الحادثة أن تبنيها والإعلان عنها جاء من قبل القاعدة التي من المفترض أنها تعمل في أفغانستان لا في باكستان. فهل كانت عملية السفارة بمنأى عن التنسيق مع طالبان باكستان؟

الاتفاق بين الحكومة وطالبان

من الواضح أن طالبان تتضخم بصورة خطرة جدا، ولما تكون باكستان غير خاضعة لاحتلال مباشر على شاكلة الاحتلال السوفياتي أو الأمريكي لأفغانستان؛ فلماذا تبدو الحكومة الباكستانية عاجزة عن مواجهة محسود؟ والأصح لماذا تبدو الحكومة مندفعة باتجاه المصالحة معه رغم أن بنود الاتفاقية الموقعة بين الطرفين تميل بالكامل لصالح طالبان؟

فيما مضى جرى توقيع الكثير من الاتفاقيات بين القبائل وحكومة الرئيس برويز مشرف، لكن الفشل كان مآلها جميعها. أما هذه المرة فقد نجحت الحكومة الباكستانية بتمرير الاتفاق مع طالبان بعد أن تعمد المفاوضون الباكستانيون إبعاد الرئيس الباكستاني حتى من المفاوضات عليه. قد يبدو الأمر غريبا لكنها الحقيقة. فهل من مضمون للاتفاق؟ ولماذا خسر الرئيس من أهل بيته وهو الذي سبق له وتلقى دعاء حميما بالنصرة؟

ليس من المستبعد أن اغتيال بناظير بوتو كان عملا داخليا قادته أطراف مناوئة أو من تخطيط وفعل الاستخبارات الباكستانية نفسها. فالمرأة الحديدية، كما توصف، عادت إلى البلاد وهي تستعد لإعلان حرب عبر إغلاق المعاهد الدينية وتعميق التحالف مع الأمريكيين بما يسمح لهم بشن هجمات أوسع وأعمق في باكستان ومنطقة القبائل وأفغانستان ضد القاعدة وطالبان والسماح باستجواب عبد القدير خان مهندس البرنامج النووي الباكستاني. وهذا يعني أنها ستذهب أبعد مما ذهب إليه برويز مشرف في تحالفه مع الأمريكيين وهو يعرض مصالح البلاد ومستقبلها لخطر داهم. فبوصفه قائدا للجيش فقد حطم مشرف هيبته في النزاعات القبلية، وأرضى الهنود بالتخلي عن قضية كشمير وتقديم ملفات الجماعات الجهادية لهم دون مقابل إلا خضوعا للتهديدات الهندية، وشل أية فاعلية سياسية للسلاح النووي الباكستاني في مواجهة الهند، وقمع الحريات حتى وصل الأمر إلى القضاة ورؤساء المحاكم، وفرض أحكام الطوارئ، واستفرد بالحكم دون منازع. ولو راقبنا الوضع الباكستاني بعد اغتيال بوتو وتشكيل حكومة جديدة لتراءى لنا أن القوى الباكستانية التي حوصرت وضُيِّق عليها الخناق هي التي تحركت وأوقفت الرئيس **المستبد** عند حده وجردته من سلطاته رغما عن أنفه.

والحقيقة أن كل شيء في باكستان كان ممكنا للرئيس الباكستاني أن يأتيه إلا التضحية بورقة أفغانستان بوصفها العمق الاستراتيجي، فالبلاد التي تؤوي قرابة 170 مليونا من المسلمين وسط مساحة ضيقة لا تحتمل، مثلا، ضربة نووية دون عمق بديل وملائم وقادر على امتصاصها كما هو حال الهند ذات المساحة الشاسعة. هذه القضية بالذات هي التي دفعت باكستان فيما مضى لدعم الجهاد الأفغاني، وهي التي دافعت عنها المخابرات الباكستانية باستماتة قبل أحداث سبتمبر، وحتى بعدها حين أرسل مشرف مدير المخابرات إلى أفغانستان لإقناع الملا عمر بتسليم بن لادن إلا أنه أقيل بعد عودته مع 18 آخرين ممن رافقوه في مهمته. وقد أشارت بعض التحاليل، في حينه، أن عزل مدير المخابرات من منصبه جاء على خلفية تحريضه للملا عمر على التمسك بمواقفه وعدم تسليم بن لادن. لذا من المرجح أن الحكومة والمخابرات وحتى الجيش هي بعض القوى التي نشطت في السعي إلى توقيع الاتفاق كمقدمة لاستعادة عمقها الاستراتيجي، وهذا يعني أنها أعادت النظر فعلا في سياسات الرئيس.

ولدى معاينة تصريحات الجانبين سيتبين لنا أن الجانبين (طالبان والحكومة)حَرِصا على توقيع الاتفاق وإنجاحه بكل الجدية اللازمة. فمن جهتها قال مسؤول حكومي أن باكستان أبلغت الولايات المتحدة بأنه ما من حل آخر لدائرة العنف التي تعصف بالبلاد إلا بهذه الطريقة، لكنه كان أكثر وضوحا حين أعلن عن سياسة باكستان الجديدة بالقول بأن العصر الأمريكي في البلاد قد انتهى، فـ: **تلك الأمور تغيرت.. فالسيناريو القائم اختلف تمامًا عن ذي قبل ... كان هناك رجل واحد تتعامل معه واشنطن ... وسيكون من الصعب أن تفعل ما كانت تفعله في** حين ...

السنوات القليلة الماضية حيث توجد اليوم حكومة ديمقراطية، أما عن الرئيس فالجميع في باكستان فضل إبعاده عن العملية لأنه: **مثار الخلاف ... ولو كان ضمن العملية لما كان المسلحون ليقبلوا التوقيع على الاتفاق.**

وعلى الجانب الآخر من الأهمية بمكان ملاحظة تصريحات مسحود وهو يؤكد على أن: **القتال بين طالبان وباكستان يضر بالإسلام وباكستان. يجب أن ينتهي هذا القتال فورا.** ورغم أن الاتفاق المكون من 15 بندا ظل طي الكتمان إلا أنه يميل فيما رشح عنه لصالح طالبان من حيث قدرتها على تحقيق أربعة مطالب قدمتها للحكومة هي: **(1)** انسحاب الجيش من منطقة وزيرستان الجنوبية القبلية ووادي سوات مقابل إنهاء نشاط المقاتلين **و (2)** تبادل السجناء بما في ذلك الجنود والسفير المختطف **و (3)** تعويض الأشخاص المنكوبين في المنطقة **و (4)** حرية الحركة لنشطاء طالبان.

هكذا تبدو الحكومة والجيش، الذي حظي الاتفاق بتأييده، راغبين، ليس فقط في تجنب الصدام مع طالبان والقبائل، بل وساعيين إلى التحالف معهم خاصة وأن مضمون الاتفاق: **(1)** لم يشر من قريب أو من بعيد إلى حظر العمل العسكري ضد الأمريكيين في أفغانستان! بل أن تصريحات محسود تؤكد أن: **الإسلام لا يعترف بالحدود، وأن الجهاد في أفغانستان سيستمر**، كما أنه ليس صحيحا، بحسب عضو بارز في حزب **عوامي** المشارك في الحكومة، أن الاتفاق **(2) قد تم على عجل**، وعلى العكس من ذلك فـ: **المسودة المقترحة هي نتيجة مفاوضات طويلة واتصالات خلفية مع القبليين**، بمعنى أن الاتفاق تم تدارسه بروية

وبنظرة مستقبلية وليس لتحقيق احتياجات طارئة. بل أن: (3) **مسودة الاتفاق ضمت تأكيدات بأنها لن يتم إلغاؤها مهما كانت الضغوط الداخلية والخارجية**، والأهم على الإطلاق هو ما جرى تسريبه دون أن تتوقف عنده وسائل الإعلام كثيرا ويتعلق بـ: (4) حق طالبان ومشايخ القبائل بتطبيق الشريعة في المناطق المشمولة بالاتفاق. وهذا يفسر إلى حد كبير المنشورات التي وزعتها طالبان في عدة مناطق وهي تهدد بأن من يخرق: **أمر الكف عن الهجمات سيشنق في مكان عام، ولن تقبل أعذار، وهذا أمر قاطع**.

لو قارنا الوضع بما يجري في العراق لتبين لنا أن القوى الحكومية والجهادية في بلاد الأفغان باتت أقرب إلى بعضها من ذي قبل بمراحل كبيرة جدا بعكس الحالة في العراق حيث يتعرض المشروع الجهادي فيها إلى ما يشبه الحصار الخانق. ولهذا تبدو الساحة الأفغانية أسهل وأنشط عسكريا وسياسيا وأكثر أمانا، ولعلها من المفارقات التاريخية الكبرى أن تنقلب الصورة فتتحول باكستان إلى عمق استراتيجي للقاعدة وطالبان الأفغانية فيما ضيعت سياسة مشرف أفغانستان كعمق استراتيجي حقيقي لباكستان. وعلى كل حال فالواقع يقول أن كل طرف يسعى اليوم إلى تأمين عمقه الاستراتيجي لدى الآخر، ومع أنه ليس من المستبعد أن يكون للحكومة الباكستانية أهدافا خفية من تقربها لطالبان؛ فهي ليست واقعة في غرام معها ناهيك عن القاعدة، فإن الواقع السياسي الجديد يوفر، على الأقل، فرصة لكل القوى لإعادة ترتيب أوراقها.

هكذا يمكن ملاحظة أن الحراك المسلح في المنطقة تقوده اليوم ثلاث قوى كبرى هي القاعدة وطالبان باكستان وطالبان الأفغانية، وبعيدا عن عنتريات الرئيس الأفغاني حامد كرزاي

بعبور الحدود الباكستانية لملاحقة المتشددين، فإن مثل هذا الوضع لن يكون مطمئنا للأمريكيين الذين عبروا عن قلق بالغ وسخط من توجهات الحكم الجديد في باكستان، لخشيتهم من تحول البلاد إلى ملاذ آمن يمكّن القوى المناهضة لهم من إعادة تنظيم صفوفهم. لكن من المهم ملاحظة أن السعي الحكومي للمصالحة مع مقاتلي القبائل وطالبان جاء متأخرا جدا عن التنسيق بين القوى الجهادية الكبرى في المنطقة، بمعنى أن فشل المصالحة قد لا يؤثر كثيرا، فيما لو نقض الاتفاق، على التحالف بين القوى الجهادية. وغلى هنا ربما يكون الوقت ملائما كي نفهم بعضا من التصريحات المتكررة في السنوات الثلاث الماضية لقادة القاعدة وهم يرددون عبارة أن: **الخير قادم في أفغانستان**.